شائعات العامة وأحاديث الخاصة

هالة أحمد فؤاد مصطفى ■

نَصٌّ حواري يسعى بنا في آفاق برحة متخيلة، يراوحنا ما بين توتر المثقف المهمش الغاضب، وقلقه الوجودي الحيوي المحتدم، من ناحية، وهدْأةِ التأمل الأرسطي لمثقف السلطان المستقر في فسحة اليقين الناعم، وتخمة الرفاهية المخملية، من ناحية ثانية. الأول يعاني فداحة شظف العيش، وتقمعه الضرورة القاسية، لا يملك حرية الاختيار، وليس لديه سوى مداراة الجميع عامة وخاصة، حتى حدود الاستجداء المذل في أحيان كثيرة. أما الثاني، فإنه ـ رغم تقلبات العصور ـ ما زال يملك الدل علي أصحاب السلطان، ولا يعاني شظف الاحتياج المحرق، ولا تسحقه الحاجة الهاتكة.

يطلق التوحيدي البائس هوامله متناثرة متشظية، أو هذا هو ما يسعى لإيهام القارئ به، ولعله يخايل محاوره

■ باحثة وأكاديمية من مصر.

ويراوغه عبر مرايا التفاصيل الهامشية المشتتة الملتقطة من هنا وهناك، وكأنها جزئيات هامشية خارج المتن، لا ينتظمها سياق بعينه؛ بل هي مجرد تداعيات حوارية تكاد تصوغ فضاءات البديهة الحرة وعفو الخاطر.

ومن عمق الهامش ستسعى هذه الورقة البحثية لاكتناه ملامح متوارية للمتن، وحيث تتجلى التفاصيل المسكوت عنها في مرايا المباغتة.

أحاديث وشائعات العامة حول السلطة:

يطرح التوحيدي بوضوح مراوغ على مسكويه سؤالاً مثيراً للانتباه إذ يقول: -

«ما بال خاصة الملك، والدانين منه، والمقربين إليه، لا يجري من ذكر الملك على ألسنتهم مثل ما يجري على ألسنة الأباعد منه مثل البوابين والشاكرية والساسة، فإنك تجد هؤلاء على غاية التشيع بذكره، ونهاية الدعوى في الإشارة إليه، والتكذب عليه.

قال أبو علي مسكويه: لسببين: أحدهما: أن الأقربين إلى الملك هم المؤدبون المستصلحون لخدمتهم، وفي جملة الآداب التي أخذوا بها ترك ذكر الملك، فإن في ذكرهم إياه ابتذالاً له، وانتهاكاً لهيبته وهتكاً لحرمته. فأما أولئك الطبقة، آدابهم لا يميزون، ولا يأبهون لما ذكرته، فهم يجرون على طباع العامة اللائقة بهم في الافتخار بما لا أصل له، وادعاء ما لا حقيقة له، ولظنهم أنهم ينالون بذلك كرامة ومحلاً عند أمثالهم. وأما السبب الآخر: خوف حاشية الملك من عقوبته، فإن الملك يعاقب على هذا الذنب، ويراه سياسة له؛ لئلا يتعدى ذاكروه إلى إفشاء سر، وإخراج حديث لا ينبغي إخراجه»(الهوامل والشوامل)

ورغم أن ولاء مسكويه الأكبر كان للفلسفة اليونانية؛ فإن هذا لا ينفي حضور الأثر الفارسي في خلفية تصوراته للملك بحكم السياق الثقافي العام

فـي القرن الرابع البويهي، كما هو معـروف. وبعيداً عن المعالجة الأخلاقية ذات الطابـع المثالـي المؤطـرة لجـواب مسكويه، والذي لا يخلـو بدوره من مراوغـة؛ فإن النص يهجـس بخبايا تلك العلاقة المعقـدة بين السلطة من ناحية، والخاصة والعامة من ناحية أخرى. ويخص التوحيدي بسؤاله السهل الممتنـع الخاصـة المقربيـن، والذي كـان مسكويه واحداً منهـم؛ بل وسعى التوحيـدي سعيـاً محموماً لينتسب إليهم ويدخل في زمرتهم؛ لكنه لم يعرف كيف يحقق النموذج ويمارس اللعبة من جهة، كما يخص العامة العاملين في فضاء السلطة، وداخل مساحاتها المتنوعة من البوابين والساسة والشاكرين؛ أي الخـدم والعبيـد من جهـة أخرى. ويلفتنا سـؤال التوحيـدي إلى مفارقة العامة / الخاصة من حيث علاقة كل منهما بالحديث عن السلطة أو الملك من وراء ظهرهم، أو في ملكوت التخفي والاستتار. ولعلنا نلاحظ أن العامة مـن أمثـال هؤلاء البوابين والساسة والشاكرين إلـخ يتمتعون بقدر أعلى من الحريـة في هذا السياق، ورغم أنه يصف هؤلاء بالأباعد عن الملك، فإنهم قـد يكونون الأكثر قرباً إلى درجة الخطـورة غير المنتبه إليها وإليهم؛ ذلك أن هـؤلاء يندسـون في ثنيـات المكان، لا يلتفت إليهـم ولا يُشعر بهم، الكل يستهين بوجودهم، ولا يعدّهم أحد ذوي شأن أو قيمة أو خطر؛ بل قد يعاملون بوصفهـم بلهاء أغبياء لا يفهمون شيئاً، ولا يختلفون في وضعهم وحضورهم عـن البهائم والـدواب. إن مساحـات الاستهانـة واللَّامباليـة والسقوط من الاعتبـار هي مساحات لا للانفلات والحريـة المطلقة فحسب؛ بل للاقتراب الشديـد، واختراق كل السياجـات والاحتياطات، وأسـوار الحماية والتغطية، مما يجعل هؤلاء يعرفون أكثر مما ينبغي، ويفضحون أخص وأخفى الأسرار، وإذ يعرفون خفايا الكل ـ ملوك ووزراء وأشراف ونبلاء وقواد وأصحاب يسار وغنى ومثقفيـن، إلخ ـ فهم عيون متلصصة وآذان مصغية متسمعة يهددون الكافة، ولا شيء يهددهم.

واستمع إلى نصيحة وعهد أحد ملوك اليونان إلى ولده [وفقاً لكتاب (العهود اليونانية) لأحمد بن يوسف بن إبراهيم]، إذ يقول:

«وأعلم أن خدمك بمنزلة جوارحك التي تعطي بها وتمنع، وحواسك التي تقضي بها على ما شعرت به، فرضهم بالصدق والأمانة وحسن الانقياد إلى ما آثرت، واحذر منهم من قويت شهوته، فإنها تنازعك الملك، ومن تستر عنك بلطف حيلة أو زادت قوة فكرته على ما تحتاج إليه في مرتبته، وأشرب قلوبهم الحق فيما تطالب به، والباطل فيما اعتزلته، والصواب فيما رأيته، وأن متصفح أمورك منهم متحرج آثم، ومتعد ظالم. ولتكن ثقتك بالمطبوع منهم فيما وكل به ـ وأن قل حرصه ـ أكثر منها في المتصنع وإن عظم اجتهاده..... وآلفهم من عطاياك بما لا يبطر أعلامهم، ولا يحزن أصاغرهم... واحظر عليهم خلافك فيما قاد إلى مصلحتك، كما تحظر خلافك فيما أضربك، فإن الخلاف نبوٌّ عنك وترفع عليك... ولا تؤنسهم منك بقبيح في قول ولا فعل..... فإنك لا تزال عندهم مستحقاً للرئاسة عليهم ما لم يتبين منك رذيلة تحطك عن مرتبتك فإذا بدا ذلك ذلت عن ملك سرائرهم، وفسد عليك ترتيبهم؟»

ولعلنا نلاحظ مدى ما يكشف عنه هذا النص من حضور شديد الأهمية لا يخلو من وطأة وثقل وخطورة للخدم أو أدوات الملك، حواسه وجوارحه!! وللتشبيه دلالته اللافتة بكل ما يعنيه من خطورة، وقد تقود إليها حواس المرء وجوارحه، فضاءات الشهوة المتدنية في ظل نظام القيم التراتبي لنفوس الإنسان الثلاث، كما هو معروف. وهو ما يعني ضرورة السيطرة، سيطرة الملك المرادف هنا للعقل على هؤلاء، بل أهمية أن تكون مطلقة وكاملة، ومن ثم لا يتوقف الأمر عند الحذر والمراقبة فحسب بل يتعداه إلى إطلاقية التبعية وكليتها لا على مستوى السلوك الظاهري فقط؛ بل

علـى مستوى العقائد والأفكار، بحيث يغدو هـؤلاء ظلالاً تابعة للأصل، تكاد تطابقـه، وتدور معه وُجوداً وعدمـاً، أو لا توجد إلا من خلاله!! ويصل الأمر إلـى حـد حظر أي إمكانية لاختـلاف الخدم مع الملـك، لا في مصلحة ولا ضـر؛ لأن مجرد الخلاف يعني التعالي علـى الملك، وادعاء المعرفة الأصح بمـا ينفعـه أو يضره، وهـذا ما لا يليـق!! ولعل خطورة الخـلاف هنا تكمن فيمـا قـد يترتب عليه من قلب للتراتب، حين يغـدو الأدنى أكثر قدرة وفهماً واستبصاراً من الأعلى، الذي يكاد يتوازى والعقل والمعرفة الحكيمة في هذا السيـاق!! وفيما تومئ النصائح وتشير من طرف خفي إلى إمكانات التحايل والمراوغـة والمخايلـة من قبل هؤلاء الخدم (الجـوارح والحواس) لسيدهم الملـك (العقـل الحاكم)، وخاصة هـؤلاء الذين تجـاوزوا حدودهم الطبقية بالمعرفـة وقـوة الفكر، فإنها تلـح على ضرورة ـ بل حتميـة ـ رياضة الملك لهـم بالصـدق، والأمانة، وحسـن الانقياد الناتج عن ذلـك الجمع المتوازن الناضـج الحكيم بين الصرامة والشدة من ناحية، واللين والرفق من ناحية ثانيـة!! وهـي النصائح التي تظـل هاجسة بصـورة الملـك المثالية شديدة النقـاء والترفع، حيـث لا ينبغي للأعلى أن يستخدم وسائـل الأدنى، ويتبذل حضـوره عبر مراياه، فلا يواجهـه مستخدماً أساليبـه المتحايلة المنحطة!! وبالطبـع، فإن من ضمن طرائق اجتذاب ولاء الخـدم ولاء الأرواح والعقول؛ بـل الهيمنـة الكاملة عليهـم بالعطاءات والمنـح، والتي ينبغـي أن تتم وفقاً لقواعـد محددة، أهمها قاعدة الوسـط الذهبي المعتدل، حيث لا إفراط ولا تفريط، فيعطي الملك ويمنح، وفقاً لمرتبة هؤلاء الخدم منه، بما لا يصيب الأعلـى منهـم بالبطر والتخمة، ولا يستثير موجدة وحـزن الأدنى، فيستشعر الظلـم والحاجـة الهاتكة!! ومن ثم لا يستفز الملك أسـوأ ما في الطبقتين، ولا يثيـر ضغائنهـم وأحقادهم بعضهـم على بعض أو عليـه!! ولعلنا نلاحظ هذا الإلحاح على معايير الثقة، والذي يصل إلى حد التغاضي عن ما ينبغي

علـى الخـادم اتباعه من الحـرص السلوكـي والقولي في حضـرة الملك أو حتـى غيبته في مقابل نمط آخر أكثر حرصاً واجتهاداً؛ لكنه متصنع مخايل لكبريـاء الملـك مخايلة زائفة خالية من الصدق، وهو الإلحاح الذي نجد له ما يبرره في النص من خلال ذلك التحذير المهم لصاحب الملك من تلك العيـون والآذان المتلصصة على خفايا عالمه وخباياه السرية، والذي يجعل أي محاولـة لتصفـح أمور الملك وشؤونه الخاصة، تدخُّـلاً سافراً يصل إلى حـد التأثيم والتعدي والبغي مـن قبل الأدنى على الأعلى، وهو حكم مناقض تماماً للحالة العكسية؛ حيث إن علم الملك بخبايا خدمه ضرورة سلطوية.

ورغـم هذا المنحى الـذي يكرس للتراتب القمعي مـا بين السيد وخدمه (أدواتـه)، ولفظة الخدم هنا قد تشمل كافة الحاشية المقربة، فإن لائحاً ما يشي لا بخطورة هؤلاء وحسب؛ بل بطبيعة حضورهم المعياري إزاء ذات الملك؛ حيث إنهم لو أطلعوا على رذائله أو أساء إليهم بقول أو فعل قبيح يتنافى مع الصورة المتخيلة لما ينبغي أن يكون عليه الملك أو الرئيس (الراعي) ـ والذي أشاعها المفكرون بكافة طوائفهم ـ لفقد مكانته عندهم أو مصداقيته كرئيس وراعٍ، وخسـر سيطرتـه علـى أرواحهم وعقولهم، ومن ثم خرجـوا عن تدبيره إياهـم، فتآمروا عليه، وزلزلوا دعائم سلطته ونفـوذه!! وهكذا قد يؤتَى المرء (الملك) من مأمنه (أو من أقرب خدمه وحاشيته إليه)، وهي مسألة تعددت شواهدها في تاريخ الدولة الإسلامية عامة، والعباسية خاصة!!

وبالطبع، لا يخلو النص من تهديد مضمر لهؤلاء المتلصصين بالعقاب القاسـي، حين يضعهـم في إطار ممارسـة البغي والتعـدي، وارتكاب الإثم، وكأنهم يعتدون على حرمات الإله، أو ظله الأرضي وخليفته!! وهكذا يتأرجح النص بين طرفيه: الملك والخدم، مشيعاً حالة من الحذر والتربص والتهديد المتبادل بينهما، بما يوحي بنديةٍ ما بينهما، رغم مفارقات التراتب القمعي، ولعلها ندية العلاقات الخطرة المهددة!!

بقيت لنا ملحوظتان أخيرتان في هذا الصدد:

أولاً: رغم أن النص سالف الذكر مستقى من أحد الكتب التي تعتمد الأصول اليونانية في نظرتها للملك ومغزاه ومجمل علاقاته، فإن الصيغة النهائية جاءت ـ من وجهة نظر الباحثة ـ أقرب لمزيج شديد الخصوصية من الثقافة الفارسية والواقع الإسلامي الحضاري، مما جعل الحضور اليوناني يفقد مذاقه الخاص، ويندرج داخل فضاءات شرقية الهوى بصورة ما!!

ثانياً: رغم إقرار النص بالتراتب القمعي، وعلاقات التشيؤ والاستخدام بين الملك، وخدمه، فإن تشبيه هؤلاء الخدم بالحواس والجوارح قد يستدعي للأذهان النص القرآني في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويروي ابن كثير في تفسيره عن درّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال:

«إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله، فيجحد ويخاصم، فيقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول: كذبوا، فيقال: أهلك وعشيرتك، فيقول: كذبوا، فيقال: احلفوا فيحلفون، ثم يصمتهم الله، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يدخلهم النار».

ويُروى عن أنس بن مالك أنه قال: كذا عند النبي، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «**أتدرون مم أضحك؟!**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**من مجادلة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً وسحقاً فعنكن**

كنت أناضل»، وقال قتادة: «ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنـك، فراقبهم، واتق الله في سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمـة عنـده ضوء، والسر عنده علانية، فمـن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل، ولا قوة إلا بالله»

ولا تعليـق لنـا سوى ملاحظـة ساذجة حـول اللعـب الميتافزيقي الذي ينتهـك كافة التراتبـات، ويمنح الهوامش حضوراً يحاصـر المتن، بل يصوغ فضاء الوعيد الأخروي مباغتاً توقعات المتن، ومدمراً أوهام الهيمنة والأمان الزائفيْن!!

ورغـم أن التوحيدي حدد طوائف معينة من هؤلاء العبيد، وهم الساسة والشاكرية والبوابون، وهي طوائف من حيث مكان عملها وموقعها من الفضاء السلطـوي تبدو بعيدة عن الملـك والمقربين منه، فإن هذا الاختيار في حد ذاتـه يثيـر التسـاؤل!! ذلك أن هـؤلاء الأباعد فعلياً قد يكونـون الأقرب إلى عوالـم الأسرار والخبايا مما يتصـور البعض أو يتوقع، ربما أكثر من العبيد والجواري والخدم الذين يقيمون داخل البلاط، ومن ثم فربما كان ما يذكره هـؤلاء عن الملك ليس كذباً محضاً، ولعلـه الأقرب للحقيقة التي لا يذكرها أحـد؛ بـل يرفض الجميع تصديقها!! ولعل التوحيـدي انتبه إلى ما يمكن أن تمنحـه مساحات البعد عـن إمكانات للرؤية والمعرفـة والحرية والجرأة، أو لنقُـلْ: الحيـاد القاسي الذي يطوي داخله انحيازاً ذاتيـاً عنيفاً لا يلتقط إلا كـل ما هو سلبـي ووضيع لدى الآخـر السلطوي موضوع النظـرة المتفرسة، والمتربصة في آن. بل يمكننا القول: إن التوحيدي لمس برهافة وذكاء مدى مـا تحققـه الغفلية من حماية لأفرادها مهما فعلـوا أو قالوا؛ ذلك أن هؤلاء الأباعـد ـ والذين قد يصوغـون أقاويلهم وشائعاتهم فـي مساحات الاستتار والخفاء التي لا تطولها دوماً عيون السلطة ولا آذانها ـ حينما تتداول ألسنتهم

ذكـر الملـك بما لا يليق، ولا يعرف من هو المصـدر الأصلي للكلام، وحيث تنتشر الأقوال انتشار النار في الهشيم، وتتوه المسؤولية، فلا يغدو العقاب أو المحاسبـة أمراً ممكنـاً، ومن ثم فقد يحرص العامة ـ في ظل هذه الحماية الغفليـة ـ على إيصال شائعاتهم إلى مسامع السلطة؛ سعياً لإغاظتها وإعادة إنتـاج القمـع عليهـا، وتماهياً مع الصـورة النمطية للعامـة الوقحين فاقدي القيم. إن مناوشات الصورة النمطية هذه هي الفخ المنصوب من قِبَل هؤلاء العامة البسطاء للسلطة، والذي قد تقع فيه أحياناً، وتنتبه له أحياناً أخرى.

ويواجـه مسكويـه محاوره التوحيـدي مفرغاً تجربة الأباعـد الرعاع من أبعادهـا التـي حاول التوحيدي الإشـارة إليها، مرجعاً الأمـر كله إلى طبائع العامـة المتدنيـة، وجرأتهم غير المبررة، وميلهم للكـذب والادعاء. غير أن مسكويـه يلتفـت إلـى أمر مهم فـي هذا الصدد هـو افتخار هـؤلاء الرعاع مـن الساسة والبوابين والشاكرية على أقرانهم مـن العامة الآخرين بسلطة المعرفـة، معرفـة أحـوال السادة والملـوك وأسرارهـم. إلخ. وهـو ما يعني اقترابهـم من هؤلاء، وهذا ما يريدون الإيحاء به، وإيهام الآخرين بحقيقته. وبالطبع يجلي هذا حالة الفضول الشديد والمُلحّ التي تدفع العامة إلى ترصد أخبـار الملوك والسـادة بكافة طوائفهم إلى درجة منح هؤلاء الذين يشكلون مصدراً لهذه المعلومات مكانة خاصة بينهم، وتكريمهم واحترامهم بوصفهم المساحات الوحيدة المتاحة والممكنة للاقتراب من عوالم السلطة المتعالية.

ويصـل فضول العامـة بأخبار الملوك والسـادة وأسرارهم إلى حد الولع والشغف المحموم؛ تعبيراً عن رغبة مهوسة بامتلاك سلطة المعرفة وسطوتها، خاصـة إذا كانت تلك المعرفة تتعلق بأسـرار هؤلاء وخفاياهم. إنها المعرفة التـي تحقق لهـم المتعة، متعة انتهـاك المحرمات، واقتحـام عوالم ما وراء الحجـب، وتدمير أوهام السلطة ذات الهيبـة والقداسة، ولعل هؤلاء البسطاء

يخلقون ـ عبر هذه المعرفة المتلصصة ـ مساحات التشابه والاقتراب المشتهى من هؤلاء السادة، أو لِنَقُلْ: إنه الطموح العامي المدهش لتحقيق بعض أشكال المساواة والندية على مستوى التشابه في الاحتياجات والنزوات وصغائر الأمور وحقيرهـا؛ أي مستـوى الوجود اليومي المبتذل. ناهيك عن دور هذه المعرفة فـي إذكاء وتوهج أحـلام وخيالات العامة حول مباهج العالـم السري لهؤلاء السـادة، والتـي قد تصل إلى حـد المبالغات الأسطورية. إنـه الشوق العامي لنيـل هذه الملـذات والمباهج التي استأثر بها السادة دونهم، والتوق المتطلع لمشاركتهم إياها، ولو عبر مساحات الخيال، ولعل الأمر برمته هنا يكاد يشبه الدخـول إلى ممالك السحر العجائبية والغرائبيـة المغوية الآسرة، ولنلاحظ كـم المفارقة المضمر في هذه العلاقة المعرفية بين العامة والسلطة ما بين الانبهـار والإغواء من ناحية، والانتهاك والاستباحة والتهديد، ونسج مساحات الاستهزاء والسخرية والتندر الفكه من ناحية أخرى.

وأياً كان الحال بين العامة والسلطة فإن هذا الفضول العامي والشغف الولـوع بأخبـار الحكام والملـوك، ثم التجرؤ والتطـاول من خلال الحديث غير اللائـق عنهم يكشف عن التدهور الذي طال صورة السلطة الحاكمة، وهـو تدهـور تدريجي نتج عن الطعـن المتكرر بهيبة هـذه الوظيفة النبيلة المقدسـة التـي خايلـت أحـلام العامة والبسطـاء ما بين الصـورة النقية الزاهـدة الورعـة للخلفاء الراشدين من ناحية، وصـورة الخليفة العباسي، ولـيّ الله وظله، والوريث الشرعي الروحـي للنبوة، والتي تضخمت تدريجياً عبـر الدعايـة الشيعية؛ ليغـدو الخليفة وكأنه شخص مقـدس فوق مستوى البشر، من ناحية ثانية!!

وعبـر صيـرورة تاريخيـة بطيئة ومعقدة طـال التحلل هـذه الصورة، وضربت الثقة والحماسة الجماهيرية لهذا القائد العظيم المهدي من قِبَل الله، كما تعتقد جماهير المؤمنين (محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر

الإسلامـي). يضاف إلى ذلـك حركات الاحتجاج ضد الخلفـاء السُّنِّيين، واضطهـاد العباسيين للعلويين وملاحقتهم، ثـم اضطهادهم الحنابلة من قِبَـل المأمون، واضطهاد المعتزلـة من قبل المتوكل، والنهايـة المأساوية لعصـر المتوكل حين قتله ابنـه المنتصر بالله بمساعدة العسكر الأتراك. كـل هـذا أدى إلى نوع من الزهد في هـذه المؤسسة الحاكمة والحط من قدرهـا، ولكـن على الرغم من هـذا يمكننا القول بأنـه حتى مجيء عهد المقتـدر عـام 296هـ، فإن الخلافـة العباسية ظلت تحظـى بهيبة معنوية وأخلاقيـة كبيرة. ولم تسقط هـذه الهيبة تماماً، وينقض الميثاق الضمني بيـن جمهور المؤمنين والخليفة العباسي المسؤول عن مصيرهم ـ مصير الإسـلام ـ إلا بوصول البويهيين إلـى السلطة في بغداد. (أركون: المرجع السابق).

ولعل مشهد خلع المستكفي بالله عن عرشه عام 334 على يد معز الدولة البويهي كان قد وضع حداً نهائياً لمؤسسة كانت مبجلة ومقدسة لفترة طويلة من الزمن، ولم يترك منها سوى صورة خيالية أو وهمية لا أهمية لها، ولقد سعـى الأمراء البويهيون إلى حل وتفكيك مؤسسة الخلافة تدريجياً بعد هذه البدايـة العنيفة، والقضـاء على هيبتها الراسخة منذ زمـن بعيد في الوعي الجماعـي للمسلميـن، وذلك عن طريق تحويلها إلى مهزلـة أو أضحوكة في نظـر الجمهـور، ولم يتعارض هذا مـع الإبقاء الشكلي علـى الخليفة، وتركه يحافـظ على السلطـات القضائية / الدينية، ناهيك عـن القيام بالتنصيب الرسمي للأمير البويهي... إلخ، مع تفريغ حضوره من أي فاعلية حقيقية أو سطـوة فعلية!! إنه أسلوب التكتيـك والمناورة، حيث تتجنب السلطة البويهية سخـط الجماهير ونقمتهـا وردود الفعل الهائجة والمعارضة العنيفة التي قد تترتـب على إطاحتها الكاملة أو قضائها الكلي على الخلافة العباسية، دفعة واحدة!! (أركون: المرجع السابق).

ويبدو أن السلطة ذاتها سواء الخلفاء أو الوزراء أو حتى الأمراء البويهيون، تحرروا هم أنفسهم من عبء القداسة، وقرروا الانحياز لحضورهم الإنساني بكل ما ينطوي عليه من تناقضات ومفارقات معقدة، ويمكننا القول بأن هذه السلطة البويهية المتحكمة التي سعت لعلمنة المؤسسة السياسية على مستوى الممارسة الواقعية ستتأرجح في موقفها من هؤلاء العامة، وأقاويلهم الوقحة بين عدة استجابات متنوعة ومتفاوتة؛ لكنها جميعاً استجابات محكومة بالضرورة العملية والنفع المادي؛ أي أن الصورة لم تعد مطلوبة لذاتها؛ بل لما ينجم عنها من تأثير يفيد وضعية السلطة ويدعم هيمنتها، ولو كان المراد يتحقق عبر نقض الصورة المثال وتدميرها والاستهانة بها!! ودعونا نتأمل نماذج مختلفة من هذه الاستجابات المدهشة، كلّاً على حدة!!

استهانة السلطة ولا مبالاتها بشائعات العامة حولها:

سلطة لم تعد تحتفي بالمثال، طالما أن خرقه لا يهدد سلطتها وهيمنتها المطلقة، لذا فما ثم إلا الاستهانة واللامبالاة والتجاهل؛ بل التمادي في السلوكيات والممارسات التي هي موضع الشائعات والأقاويل، مما يستفز العامة للمزيد من الخوض في سيرة هؤلاء السادة، والمبالغة في الحكي إلى درجة التندر والسخرية اللاذعة. وعلى صعيد آخر يستفز المثقفون من أمثال التوحيدي إلى إعلان المزيد من الدهشة والتعجب من هؤلاء السادة الحمقى، وإلى المزيد من النقد والتجريح والفضح، والمبالغة التخييلية في هذا الصدد، ولنا في مثالب الوزيرين خير شاهد على ذلك. يقول التوحيدي في مثالبه:

«لو شاهدت الطبري البائس على الباب (باب ابن العميد)، وقد احتوشه المارة، يقولون له: يا شيخ: ما جنايتك، وما الذي دهاك؟ فقال: يا قوم، ذنبي أنني طمعت في عشائهم، ورغبت في المبيت عندهم، وأن

أكون ضيفاً نازلاً بهم، فقال له رجال منهم: أنت مجنون، لقد تخلصت بدعاء والدتك الصالحة، وسلمت سلامة عجيبة، أتطمع في طعام الأستاذ الرئيس وإبليس لا يحدث نفسه بهذا، والشياطين لا يقدرون على ذلك؟ ولقد أراد أن يطير ابنه من رأس الجوسق؛ لأنه طلب زيادة رغيف في وظيفته وصب على هام أبي الفضل في تلك العشية من نوادر العامة، وسخافات الحشوية من ضروب الكذب والصدق ما لا يحصل... ومن ذا الذي رد أفواه الغوغاء والأوباش، ولو افتدى من هذا كله برغيفين وقدرة لحم لكان الربح معه؛ ولكن «الشقي بكل حبل يخنق»، قال الخليلي: لا تنظر إلى نقاء الثوب وحمرة الوجه، وفراهة المركب، وإلى... الحشد، والخيل المسومة العتاق لكن انظر إلى عرض الرجل كيف هو؟ وإلى الشكر له كيف هو؟... والعجب من بخل هذا الرجل ونذالته مع تفلسفه وتكثره بذكر أفلاطون وسقراط وأرسطو ومحبته لهم، مع علمه بأن القوم قد تكلموا في الأخلاق... وميزوا رذائلها وبينوا فضائلها، وحثوا على التخلق بها، وساقوا ذلك كله على الزهد في الدنيا، وبذل الفضول منها للمحتاجين،... وتحصيل السعادة العظمى برفض الشهوات القليلة والكثيرة منها».

إن هذه الطبيعة المتدنية تجعل من هذا السيد أرضاً خصبة شديدة الثراء للقيل والقال، وللتندر والسخرية والاستهزاء القاسي من قبل العامة الرعاع

ورغم الطابع الفكه للحكاية، فإن صياغة التوحيدي لا تخلو من حس مأساوي يستثير الشفقة على هذا الشيخ الطبري البائس، لسان حال التوحيدي ومرآته الكاشفة لمأساته في بلاط الوزيرين، والذي دفعته حاجته وفاقته وغربته إلى باب ابن العميد طمعاً في عشائه وضيافته!! ولو أننا عدنا لأصل الحكاية في نص المثالب لوجدنا التوحيدي يروي لنا أنه حضر مجلس ابن العميد ذات عشية في شهر رمضان في مجلس الفقهاء وابن

شـاذان القاضـي، فلما كادت الشمس تغرب أي حـان موعد الإفطار، وهوية الحاضريـن الدينيـة تشيـر إلـى صومهم وقف حاجـب ابن العميـد، وأشار للجماعة بالقيام والانصراف حتى أنهم قطعوا متن مسألة كانوا يتذاكرونها، وتبـادروا إلى الانصـراف. ولا ندري إن كان التبادر للخـروج راجعاً للخوف والامتثال المطلق للأمر السلطوي، حيث لا مفر ولا بديل، أم للفرح المضمر بالانعتـاق والخـلاص من مجلس ابن العميـد، أو مما قد ينتظرهم من وهم وقلق إن هم جلسوا على مائدته أو ذاقوا طعامه، وقد ذكرنا آنفاً حادثة قتله المزعومـة للرجل الأكـول!! أو كما يقول التوحيدي: «**ويسفـك دمك إن أكلت خبزه**»!!

وأياً كان السبب، فقد بقى الشيخ الطبري البائس في كساء عليه خلق؛ أي فقيـر واضـح الفقـر، فقال له الحاجـب: قم يا شيخ، لمـاذا أنت لازم مكانك؟ فقال الطبري: أنا رجل غريب قدمت اليوم من بلدي، ومحلي من العلـم قد بان في هـذا المشهد العظيم الشرف الكبيـر الفائدة، وهذا هو المسـاء، وأنـا صائم، وإن خرجـت أعجز عن مصلحتي فـي هذه العشية، والغريـب أعمى، ولست أعدم هاهنا مـا يمسكنا إلى غد، ثم أغدو لشأني، ومـا لا بـد منه لغريب مثلي في بلد الغربة فقال الحاجب له: «**أنت طبري، والـكلام معـك يصـدع، وأقبـل بغضـب، وجـذب يـده بعنف حتـى أخرجه مـن المجلـس بعـد أن شتمـه... ووكل بـه من ألقـاه وراء البـاب مدفوعاً في ظهره... وكل هذا بعين الرئيس الخسيس وسمعه، فما قال في ذلك كلمة سوداء ولا بيضاء**».

وناهيـك عن ادعاءات التوحيدي ومبالغاتـه الكاذبة، وإمكانات المخايلة لديه حول الوزيريـن، والتي تؤسس مشروعية كتابته السالبة عنهما، وقبولها مبـرراً دفاعياً قوياً لهذا العنف الرمزي المتخيل الممارس عليهما من خلال هذه الكتابة الفضائحية. فإن ما يعنينا في هذا السياق هو كون هذه الحكاية

شديـدة الوضـوح والتأثيـر والفاعليـة، من حيـث دلالتها على خسـة الرمز السلطـوي، وطبيعتـه المتدنية التي لا تطاول قامة السـؤدد الحق المثالي، أو كما قيل: «السيد هو الخرق في ماله الذليل في عزه، المطرح لحقده، المعنيّ بأمر جماعته، وهذا جماع الكرم ونظام المجد» (**المرجع السابق**).

إن هـذه الطبيعة المتدنية تجعل من هـذا السيد ـ فاقد معنى السيادة الحقـة ـ أرضـاً خصبـة شديدة الثـراء للقيل والقـال، وللتنـدر والسخرية والاستهزاء القاسي من قبل العامة الرعاع الذين يقعون على هامش النظام الاجتماعـي وفـي أسفله. فها هم يجتـرأون ويتطاولون علـى السيد الرئيس ابـن العميد، مبتذليـن وجوده السلطـوي متندرين ببخله إلى حـد المبالغة التخييليـة التـي تجعـل إبليـس وشياطينـه لا يقـدرون علـى أن يطمعوا في عطائه، ولا يستطيعون ـ بكل حيلهم وإغوائهم وشيطنتهم التي أخرجت آدم مـن الجنة ـ أن يصيبوه بنوبة كرم، فهذا هـو المستحيل بعينه، بل يتمادى العامـة، فيدعـون أنه كاد يقتل ابنه، ويلقي برأسه مـن أعلى الحصن؛ لأنه طلب طعاماً زائداً... إلخ.

ورغـم أن هـذا كله يبـدو للوهلة الأولى مجـرد طرفة مضحكـة ونادرة عابثـة ماجنـة، فإن الأمر لا يخلو من عنف وقسـوة مضمرين؛ ذلك أن هذه الأقـوال تعدّ شـكلاً من أشـكال اغتيال السمعـة وتشويهها مـن قبل الرعية العامة الهوامش الأسافل؛ لضرب السادة والكبراء في أعلى النظام، وانتهاك قدسيتهـم وهيبتهم واكتمالهم المزعوم، وإعادة إنتاج القمع عليهم، وبالطبع يتحقـق هذا الهدف تحققاً كاملاً في المجتمعات التي تكون فيها السمعة ما زالت تعدّ ذات أهمية وقيمة.

والنمـوذج المستدعى هنا واضح الدلالة فـي التعبير عن هذه المسألة، فنحـن نواجـه مجتمعـاً يعدّ قيمـة الكرم والسخـاء قيمة مقدسـة، ويتباهى

برجالاتـه الجواديـن فـي جاهليتـه وإسلامه، ناهيـك عن قواعـد الضيافة العربيـة الشهيرة، والمبالغـة في قرى الضيف وإيواء الغريب، إلخ. ورغم كل هذا نواجه سيداً ـ بل صاحب وزارة وسلطة ـ يصرف ضيوفه لحظة الإفطار فـي شهر رمضان، شهر الجود والصدقة ومـد الموائد للفقراء، إلخ. ويبخل بضيافته على شيخ بائس فقير غريب عالم صائم، لجأ إليه طمعاً في الغذاء والمأوى وحسن الضيافة.

ولعلنـا نلاحظ كيـف استخدم أبو حيـان السلاح نفسه الـذي كثيراً ما استخدمتـه السلطـة لتهديـد وقمـع المثقفيـن والقضاء عليهـم، وهو سلاح العامـة، فهـا هـو ذا أبو حيـان يلوح في وجـه السلطة بهذا السـلاح مهدداً سطوتهـا وهيبتها، معيـداً إنتاج القمع عبر وسائل أخـرى أكثر مراوغة على مستوى الخطاب الأخلاقي والديني والثقافي. لكن على أية حال فكل هذا قد لا يشكّل خطراً حقيقياً على الرمز السلطوي محل التندر والسخرية والفضح، وليـس له تأثير مدمر على المستوى السياسي، والصراعات القائمة الفعلية: صراعـات القـوى؛ ذلك أن ما عرف عن أحقـاد المثقفين الذي حرموا منح السلطـة وعطاياهـا من ناحية، وما عرف عن العامة من سخافات ومبالغات وقحـة وتطاول وجرأة ذكرها النـص نفسه من ناحية أخرى، ربما ينفي عن هذه الحكايات مصداقيتها ومشروعيتها، ويقلل من عمق تأثيرها على سمعة السلطة وقوة سيطرتها.

ومن ثم فقد يفسر هذا لا مبالاة السلطة وقلة اكتراثها بما يشاع عنها؛ بل تماديهـا في الممارسات الناقضة لكل القيم سالفة الذكر، والكفيلة بالقضاء علـى سمعتهـا وتدميرها لـدى الرعية، ولعـل التمادي في البغـي والطغيان، ومتعـة إعلان الهيمنة والتسلط من خلال كسر توقعات الرعية حول الصورة المثاليـة للسـؤدد؛ بـل مخالفتها ومناوئتهـا بعنف صادم وفـادح هي أسباب

أخرى كامنة في عمق اللامبالاة وقلة الاكتراث، ناهيك عن أوهام الاستقرار السلطوي الزائفة التي قد تغدو فخاً لصاحبها في حالات كثيرة.

ورغم أن التوحيدي يدرك كثيراً مما سبق ذكره، فإنه سيسعى لبلورة لا مبالاة السلطة وقلة اكتراثها، وتماديها العبثي في ممارسات تجعل عرضها مستباحاً لهؤلاء الرعاع والجهال، عبر مرآة نقيضة وصورة معاكسة تطل علينا من العصر الأموي، عصر النخبة العربية القريشية الخالصة!! ذلك أنه يروي لنا حكاية عن الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي القوي، وللحكاية دلالتها المثيرة للتساؤل، في هذا السياق العباسي البويهي، ويروي التوحيدي ما دار بين الخليفة، وأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، حين سأله: ـ

ما لك ولابن حرثان (وهو شاعر فارس هجا أمية) حيث يقول فيك

إذا هتف العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

قال أمية: يا أمير المؤمنين، وجب عليه حد فأقمته (حد الشراب)
فقال الخليفة: هلا درأته بالشبهات؟
فقال أمية: كان الحد أبين، وكان رجمه أهون.

قال عبد الملك: يا بني أمية، أحسابكم أنسابكم، لا تعرضوها للجهال، فإن كلامهم باق ما بقي الدهر... (ثم يعقب التوحيدي قائلاً): صدق عبد الملك... ودلّ على كرم المنافس عليه، ونهى عن متابعة الهوى وقلة المبالاة، وسوء النظر في العاقبة.. وما أسهل قول الإنسان: دع الشاعر فليقل ما شاء.. ولكنه إذا زل القول، وطار الحديث وتمت النادرة فأين المتدارك؟ وأين المعتذر؟ هيهات... والعرب تسمي رجليْن مخلداً: أحدهما: من يتأخر شيبه... والآخر: هو الذي يمدح بعد موته ومن لم يرغب في الثناء، فقد رغب عن ملة إبراهيم؛ لأن الله تعالى أخبر أنه سأله ذلك،

وما سأله إلا بعد أن أذن له، وما أذن إلا بعد أن علم أنه الخلق الأسنى والاختيار الأعلى والطريقة المثلى، فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، **وقال:** ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، **ثم وضع الله من أقدار قوم وأبقى ذمهم في الغابرين، فقال «**﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾..... **بما يبعث على الاعتبار بمن أساء لنفسه النظر والاختيار».(المرجع السابق).**

وإذا كان قيمة الحفاظ على السمعة والشرف والعرض من انتهاك القول ـ قول العامة والجهال وخوضهم في سيرة السادة ـ قد وصلت إلى حد المناورة حول الشرائع والحدود الدينية، فلعلنا ندرك مدى التهديد والخطر الذي يلوح به التوحيدي في وجه السلطة، ولا تتأتى الخطورة والتهديد من محض إطلاق القول فحسب؛ بل من انتشاره وذيوعه وتداوله، والزيادة عليه، وإعادة تشكيله وصياغته من جديد عبر ألعاب الخيال ومراوغاته وفقاً لمقاصد الراوي: المعلن منها والمضمر، الواعي واللاواعي، وطبيعة السياق المحيط، ونوعية المروي عليه إلخ. ولعل النتاج الأكثر خطورة من كل هذا هو خلود القول وبقاؤه ما بقي الدهر، سواء عبر تداول الحكي الشفاهي ووراثته، أو عبر التدوين والكتابة؛ أي بقاء السمعة الشائهة، والذكر السيئ على مر الزمان بعد ذهاب أصحابها. وبالطبع لا يمكن تجاهل مسألة الذكرى هذه في مجتمعات أبوية وراثية تعتمد على وراثة العِرْق والعنصر والدم والشرف.

ويتساءل التوحيدي في الهوامل قائلاً: «**لم أحب الإنسان أن يعرف ما جرى من ذكره بعد قيامه من مجلسه، حتى أنه ليحن إلى أن يقف على ما يؤبن به بعد وفاته؟ وكيف لم يتصنع لفعل ما يحب أن يكون منسوباً إليه مزيناً به؟ هذا ومحبته لذلك طبيعة لو رام زواله عنها لما أطاق ذلك، وأن كابر طباعه وأراد خداعه».**

وإذا كان التوحيدي يضمّن سؤاله الإجابة حين يشير إلى ارتباط هذا الميـل الإنساني لمعرفة ما يذكر به حياً أو ميتـاً بالطبيعة الإنسانية، فإن إجابـة مسكويه تدعم هذا التصـور مشيرة إلى مسألة حب الذات لذاتها، وارتبـاط هـذا الميـل أو الاشتياق المعرفـي بهذا الحب الذاتـي. ويضيف مسكويـه رداً علـى سـؤال التوحيدي الثاني حول عدم سعْـي الإنسان لفعل مـا يجعل ذكـراه طيبة دوماً مـا دام مهوساً بحكم طبيعتـه بهذا، مرجعاً هـذا إلى وطـأة الشهوات الدنيويـة العاجلـة ومناوئتهـا وإفسادها للميول الطبيعيـة الإنسانية الخيـرة.، ويومئ مسكويه إلى مسألـة مهمة؛ ألا وهي التناقـض الحـاد بين حـب الإنسـان لذاته حبـاً حقيقياً يـؤسس لتفاضله ورقيـه الإنسانى، وخلـوده دنيا وآخرة عند العبد والـرب من ناحية، وبين استجابتـه البهيمية لشهواته العاجلـة التي تحقق اللذة لحظة وتورث الألم والعـار دهراً. وهي التفرقة التي تعني ارتباط حب الذات لذاتها بالفضيلة والحكمـة وليـس العكـس، ولعله الفـرق بيـن النرجسية المدمـرة للذات، نرجسيـة الطغيان والبغي والموت، وبين النرجسيـة الخلاقة ذات النوافذ المنفتحـة علـى الآخر، النسبـي والمطلق، معرفيـاً وأخلاقيـاً وجمالياً إن صـح التعبير. وهكذا يؤسس هذا الحـوار لمسألة الذكرى الطيبة والسمعة الحسنـة تأسيساً طبيعياً وأخلاقياً، ويضمر في أعماقه نقداً سياسياً لاذعاً مريـراً للسلطة القائمة ولا يكتفي التوحيدي بهذا، فقد لاحظنا كيف سعى فـي نص المثالب، سالف الذكـر؛ لتأسيس هذه المسألة تأسيساً دينياً من خـلال استدعاء نموذج إبراهيم الخليل أبي الأمم والشعوب، بوصفه دليلاً ناصعـاً على ضرورة طلب الثناء والمدح فـي الحياة والموت؛ لأن هذا من الخلـق الأسنى والطريقـة المثلى، خلـق الأنبياء والصديقيـن؛ بل يصرح قائـلاً: إن مـن حاد عن هـذا وتجاهله، أو سـار عكسه عُدَّ كافـراً، يقول واصفاً خسة ابن العميد ولا مبالاته بالذكرى الطيبة:

«وقلة الاكتراث والطغيان الذي هو باب الكفر، الذي هو خسران العاجلة والآجلة».

ووفقاً لكل ما سبق، يغدو صاحب السيرة المشوهة والذكرى السيئة ـ سواء في الحياة أو بعد الموت ـ مناؤئاً للطبيعة والفطرة السليمة، مخالفاً للعرف والأخلاق الفاضلة، خارجاً عن سياق العقل والحكمة، وأخيراً كافراً طاغياً باغياً، متجاوزاً للحدود بفعله الرديء، وسوء نظره واختياره، أسيراً لأنانيته المفرطة الضيقة المهلكة، وإذا كان هذا هو حاله، فقد نسي حق الخالق والمخلوق عليه بتجاهله لحضورهما، أو لصورته المنعكسة والمتكشفة عبر مراياها بما يحقق الوجود الخلاق معرفياً وقيمياً. وهكذا تدمر أقوال العامة الفاضحة لسوآت السلطة قداسة الهيمنة، وتزلزل دعائم السطوة والسلطان في الدنيا، كما تستلبها إمكانات الخلود الأخروي!!

ولعل المثقفين بكافة طوائفهم استثمروا بصورة ما هذه المساحات المهملة من قبل السلطة، مساحات الأقوال والشائعات غير المهددة تهديداً سافراً وجذرياً، ولا مبالاة السلطة بها للتصعيد في اتجاه آخر هو صياغة التصورات المثالية للسؤدد، أو السلطة وعلاقتها الراقية المنشودة بالرعية؛ حيث غدت هذه الصياغة بتنوعاتها إمكانية لمراوغة السلطة بطرائق عديدة تتفاوت ما بين القمع والفضح والتربية والاستنفار لتحقيق المثال إلخ.